

في نور محمّد فاطمة الزهراء

ولم يعد حينئذ شكّ في أنّ الهجرة وجبت على المؤمنين. ما وقع بنفس الزهراء من بضعة أشهر لم يعد اليوم حدّسَ ظنّ، أو هَجَسَ تصوّرَ واهم، بل أصبح وإنّهُ ليقين من اليقين ... وتهيَّأت للأمر وأهل الدار وتلبَّثت تنتظر على رغبة وأهبة إشارة الرسول، فكلّ حركة بموعد، وكلّ خطوة بميقاة. وإذا كان قد عزّ عليها أن تفارق مكة، فلا حرج عليها لو أخذها هذا الشعور، وقد علمت أنّ أباهما ليلة مخرجه وقف على مرتفع رنا منه إلى البيت العتيق، وإلى البلدة التي تحتضنه، ثم قال وكلماته تكاد تتقاطر عبرات: «وا»، إنّك لأحبّ أرضاً إليّ، وإنّك لأحبّ أرضاً إلىّ، ولولا أنّ أهلك أخرجوني منك ما خرجت» [752] لكنّ أمراً آخر كان يشغل قلبها في هذه الآونة الأخيرة من عهدها بمهبط الوحي، ويملاًه إلى حافّتيه، حدّى لتحسّسه وكأنّهُ يفيض كما يفيض الإناء المترع بالماء ... إنّهُ لأمر الأثيرة «خديجة» جوهر الوفاء وزينة النساء. فما ماتت في فكر الابنة هذه الأم التي ليس كمثليها امرأة في الأمّهات، ما غابت قطّ عن شردة خاطر، ولا خلجة بال، ما غربت شمس حياتها عن وجودها وإن كان جثمانها ليثوي في ثرى الحجون. وإذا آن الآن وقت الرحيل، فلات [753] لهذه الغالية حين رحيل! فلعلّ الفتاة الحزينة قد أُشربت - نفساً - وبدناً - أسيّ موجعاً، نفذ في وجدانها حدّى أعماق الأعماق، وتخلّل مسامّ بشرتها حدّى خالط الدماء في العروق، وهي ترى بعين المسافة إلى أيّ مدىّ ستكون بعيدة عن المئوى [754] الحبيب. ثم لعلّها تلفتت فيما حولها، وما حوت الدار التي شهدتها وليدةً فصبيةً فيافعةً، فرأتها - بعين غدها - مهجورةً، قد أقفرت [755] من الأهل، فلا حركة قدم، ولا رفّة ثوب،